العالم فى نظر صموئيل بيكيت وداڤيد هيوم

بقلم

مرسيس عوض

يقول الناقد « ج · س · أوتس » فى مقال له عن ثلاثية صـــامويل بيكيت الروائيـــة المعروفة : (« مولوى » (١٩٥١) ، و « مالون يموت » (١٩٥١) · و « الذى لا يمكن تسميته » · (١٩٥٣) ان الصعوبة النسبية التى يتسم بها أسلوب بيكيت فى النثر ، والتى يتصف بهـــا سرده الروائى تسبب بلبلة فـــكرية لدى الكثيرين · وتشكل هـــذه الصـــعوبة موقفا نقديا شائكا · فمن ناحية ، نجد أن بيكيت قد أصبح رائدا له أتباعه ومريدوه ، ومثالا أدبيا يحتذى · ومن ناحية أخرى نرى أن الدوائر الأدبية المحافظة تعمد الى اغفاله ، وترفض أن تتعرض لأدبه فى جدية، دون أن تعنى بنقد هذا الأدب الا فيما ندر · والتهم التى يحـــلو لهـــذه الدوائر المحافظة فى الأدب أن تلصقها بصامويل بيكيت فى العادة هى اصراره على التشاؤم وتشبثه به بصورة مملة متكررة لا يخترمها بصيص واحد من ضوء أو أمل · وفى رأى هذه الدوائر الأدبية المحافظة أن هذه الدرجة من التشاؤم لا تتمشى حتى مع ظروف العصر الذى نعيش فيه ، بالرغم من كل ما فى هذا العصر من أسباب تبعث على التشاؤم · ولكن « أوتس » يقف قلمه لدحض هذا الموقف النقدى المتجنى على أعمال صامويل بيكيت الأدبية ·

يرى « أوتس » أن صامويل بيكيت يخلق فى عالمه الروائى مظهرا يعبر عنه عن طريق الاستعارة والرمز · ويعيش فى هذا المظهر فرد فنان يشتغل بالكتابة أو بالفكر الخلاق : وينسلخ هذا الفرد تماما عن الحياة ، وينفصم كل الانفصام عن العالم الخارجى · ولا يستخدم بيكيت فى رواياته الأساليب الروائية المعتادة التى يستخدمها معظم الروائيين · فهو ينبذ أدوات السرد التقليدية من حبكة روائية ، وخلق للشخصيات ، ومراعاة الاستمرار الروائى ··· بل انه ينبذ المفاهيم الخاصة بالزمان والمكان · ويرى « أوتس » أن حبكة ثلاثية بيكيت تدور حـــول كلمة الأنا الواعية بنفسها ، والتى تتحرك داخل ذاتها حتى تصل الى منطقة الصفر (أو العدم) · و « الأنا » الواعية بنفسها عند صامويل بيكيت لا تغمر ذاتها فى بحر العنـــــاصر المدمرة ، ولكنها تنحسر داخل ذاتها نحو وعى مذهل بجوهرها ·· وعى صريح قاس، كما أنه رتيب فى غالب الأحيان ، وفى اعتقاد « أونس » أنه ينبغى علينا لفهم أدب صامويل بيكيت فهما صحيحا أن ندرك أمرين منذ البداية · (أولهما) : كيف يرفض بيكيت استخدام الوسائل المألوفة فى فهم الحقيقة · و (ثانيهما) كيف انه يحسم الصراع الذى تدور رحاه داخل الشخصية الروائية الأساسية ، بالاستعارة على أقل تقدير ، وذلك عن طريق التوازن الذى تحققه كتاباته ·

وينحو « أوتس » الى تفسير ثلاثية صامويل بيكيت الروائية نحوا فلسفيا ، فيقول أن الشك عند بيكيت يغاير الشك عند ديكارت · فالشك الديكارتى يفضى الى اليقين والى تأكيد الوجود ، فى حين أن هوية الانســـان عند بيكيت تفتقر دائما الى ما يؤكد وجودها ، فهى مجهولة أبدا · ويتشكك بيكيت فى اثبات ديكارت المبدئى لأولوية الوعى ، كما يتشكك فى يقينه من وجود « الأنا » ، وهو الوجود الذى يبنى عليه ديكارت هيكل فلسفته · وسبيل صامويل بيكيت الى التعبير عن هذا التشكك هو خلق شخصيات روائية من طراز خاص · فشخصيات بيكيت الروائية تصـــل الى مسامعها « أصوات » ، ولكنها ترفض الاعتراف بأن هذه الأصوات تنبع من داخلها ··· بل انها ترى أن هذه « الأصوات » الآتية من العالم الخارجى تهدف الى تضليلها وتسعى الى تعميتها وخداعها ، واقناعها اقناعا زائفا بأنها (أى الشخصيات) هويات موجودة بالفعل · ويستشهد «أوتس» على هذا بفقرة وردت فى رواية « الذى لايمكن تسميته » · وهـــذه الفقرة تقول : « انهم لا يعرفون أين أنا ، أو ما أنا عليه من شكل فأنا كالتراب وهم يريدون أن يخلقوا من التراب انسانا · انصت اليهم وقد تطرق اليأس الى قلوبهم ! انهم يفعلون هذا بغية تهدئتى وخداعى حتى يخيل الى أننى أسمع نفسى ــ نفسى أخيرا ــ تقول لنفسى ــ لنفسى أخيرا ــ انه لا يمكن أن يكونوا هم الذين يتكلمون هكذا ، بل انه أنا لا سواى الذى أتكلم هكذا · »

ويرى « أوتس » أن هناك أوجه شبه مذهلة · تربط بين ثلاثية صـــامويل بيكيت الروائية وبين ما كتبه الفيلســوف الانجليزى المعروف « دافيد هيوم » فى مبحثيه : « مبحث فى الطبيعة الانسانية (نشر عام ١٧٣٩ تقريبا) ، و « استقصاء فيما يتعلق بالفهم الانسانى » (١٧٤٠) · ويقول « أوتس » ان رواية «مولوى »

تصور عالما مشوشا يدعو الى الحيرة والبلبلة ، عالما تنتفى منه سائر المطلقات التى يمكنها أن تضفى عليه أى معنى · ويربط « أوتس » بين عالم بيكيت الروائى ، وبين ما كتبه « دافيد هيوم » فى تلخيص لبحثه عن الطبيعة البشرية · فهيوم فى هذا الملخص يقول ان حقائق الحياة المألوفة لا سبيل الى اثباتها سوى عن طريق الوقوف على أسبابها ونتائجها · والخبرة وحدها هى التى تجعلنا نرد هذه النتيجة الى ذاك السبب · ولكن خبرتنا الماضية لا يمكن أن تكون معيارا نطبقه على أحداث المستقبل · ومعنى هذا أن التنبأ مستقبلا بنتيجة ما على ضوء خبرتنا بسببها فى الماضى لا يعدو أن يكون احتمالا ، وليس يقينا · خلاقة النتيجة بالسبب ليست حتما أو ضرورى · ونحن نعلم كيف انتهت فلسفة هيوم لا الى التشكك وحده ، بل الى انكار أن للعالم الخارجى وجودا مستقلا عن الوعى الانسانى · وقد كانت النتيجة الطبيعية لتشكك هيوم هى هدم أية محاولة يبذلها الانسان لعرض أى « نظام » على العالم الخارجى · وفى رأى « أوتس » أن هذه الذاتية المطلقة موجودة بجلاء فى ثلاثية بيكيت الروائية · فليس فيها للزمان أو المكان وجود خارج الذات الواعية · ويقول « الذى لا يمكن تسميته » ـ بطل الرواية التى تحمل هذا الاسم » ـ ان كل ثانية هى أسوأ الثوانى جميعا · وهى سجل ··· الثوانى تمر ، ثانية تلو الأخرى ، مهتزة وفى غير انسياب انها لا تمر ··· وعندما تنضب ذخيرتك من الكلام ، نراك تتحدث عن الزمن ، ثوانى الزمن · وبعض الناس يضيف هذه الثوانى بعضها الى بعض ليجعل منها حياة · »

وفى نظر « أوتس » أن تشكك هيوم ينعكس فى عصرنا هذا على ما يسميه المذهب العقلى الجامد المحدود الذى يدعو اليه أصحاب الوضعية المنطقية ، كما ينعكس على روح الوجوديين المحدثين · فهؤلاء العقلانيون وأولئك الوجوديون يتشككون ـ على حد سواء ـ فى دلالة أى شىء خارج عن الوجود الفردى · ويقول « أوتس » : ان بيكيت فى ثلاثيته يظهر الانسان من أوشاب وجوده فى العالم المألوف الذى تدركه الحواس حتى يصفو ويصبح روحا وحيدة منفردة وقد انسلخت عن هذا العالم · وينفخ بيكيت هذه الروح الوحيدة ذاكرة تصلها بذلك العالم الذى كانت تعيش فيه من قبل · ولكن ذاكرة هذه الروح معتمة فهى لاتعرف اذا كان هذا العالم موجودا بالفعل أم لا · ويلح هذا العالم الخارجى فى سعيه لفرض نفسه على « الأنا » فى صورة « أصوات » تنبعث منه ··· أصوات مشكوك فى أمرها قد تعنى أشياء عديدة · ولكن جميع هذه الأصوات تتبدد ، ولا يبقى غير صوت واحد يظل يلح على البطل الروائى بطريقة تذكرنا بعالم كافكا النائى البعيد · وتسعى « الأنا » بالتوغل داخل ذاتها لاسكات هذا الصوت الوحيد حتى يصبح ضربا من الصلاة الصامتة التى لا تطلب شيئا ، هى فى نظر بيكيت أصدق الصلوات جميعا · ولاسبيل الى بلوغ حالة الصمت هذه الا بالتخلص من كل ما هو عرض زائل ، يعبر عنه بيكيت فى شىء من السخرية فى رواية «ميرفى» بقوله : « عندما تسقط على الكلمات المثلجة ، والمعانى المثلجة تقطع البرد ··· عندما يموت العالم أيضا ملعونا ··· الكلام

اختراع · وهذا خطأ مصيب للغـــاية · فأنت لا تخترع شيئا ، وأنت تظن أنك تخترع ، وتظن أنك تلوذ بالفرار ··· »

ويرى « أوتس » أن صامويل بيكيت يعنى بتأكيد « الوعى الخلاق » فى ثلاثيته ··· فى روايتيه الأخيرتين على وجه الخصوص · فمالون يحتضر ولكنه يشـــغل نفسه بالكتابة وتدوين خواطره · وهو يتسلى برواية الحكايات عن الناس · ويعتقد « أوتس » أن مالون يلجأ الى هذا عسى أن يجد فيه ما يعينه على فهم الانســـان ذلك المخلوق المحير · ويعالج « مالون » شخصيات حكاياته باعتبارها امتدادا لنفسه · وليس فى تدوين مالون لخواطره شىء جديد فمولوى كان يفعل ذلك من قبل ، وكذا « موران » فى رواية « مولوى » · الذى كان ينظر الى شخصيات حكاياته التى يرويها على أنها أقنعة تختفى وراءها هويته التى يستشعر وجوب تحديدهـــا · ويستطرد « أوتس » قائلا : ان « الذى لا يمكن تسميته » تصور كذلك علاقة الكاتب بما يخلق من شخصيات · ويقع « الذى لا يمكن تسميته » نهبة للحيرة والبلبلة ، لأنه يدرك أن غموض العالم الداخلى الذى يعيش فيه هـــو نفس غموض العالم الخارج عنه · وتستشرى فيه البلبلة فيميل الى الاعتقاد بأن « الأصوات » التى تصل الى مسامعه قد تكون من خلقه ، ومحاولة من جانبه لعزل « شرط المحدود » وتفهم علاقته بشىء خارج عنه حتى يصير لها معنى · فشرط المحدود يصبح عديم المعنى بدون هذا الشىء الخارج عنه · وبذلك يصبح « ميوفى » ، و « مولوى » ، و « موران » و « مالون » رموزا تتبال تمثيل ألم الانسان يستعرضها ذهن « الذى لايمكن تسميته « الحالم » ولكن « الذى لا يمكن تسميته » الحالم لا يقنع بهذا فى نهاية الامر فالذى يعنيـــه هو نفسه فقط ، لانفوس الغير ويبحث الذى لايمكن تسميته فى دخيلته فلا يجد فيها سوى « ظلام النفس » وقد أصبحت عارية من كل عرض · وهناك لايجـــد « الذى لا يمكن تسميته » سوى الفوضى الميتافيزيقية حيث تتلاشى الابعاد ، ويتلاشى الزمان وتتلاشى المطلقات · فليس لهذه الأشياء جميعا وجود خارج مطلق « الأنا » الذى يستمر دون أن يهدأ له بال · وكيف يهدأ باله وهو يسأل فلا يتلقى اجابات تشفى غلته ·

وبالرغم من هذا كله فان « أوتس » يعتقد أن شخصيات صـــامويل بيكيت الروائية لا تقع فريسة لليأس ، رغم أن العالم الذى تعيش فيه قاس غليظ يجافى أحكام العقل والمنطق · فنحن لا نجد فى هذه الشخصيات مانجده فى أوجه الوجودية المختلفة من قبول رومانسى عابس لما هو كائن · بل اننا نجد بدلا من هذا القبول العابس لما هو كائن ابتهاجا بهذه « الفرحة السوداء » التى تشيع فى عالمها الغريب · وشخصيات بيكيت الروائية تدرك عبث موقفها الذى يبعث على الضحك ، ولكنهـا تنعم به وتبتهج له ، فمولوى الرجل العجوز الشريد مثـلا يسقط فى حفرة موحلة ، ويناجى نفسه فى قلب هذه الحفرة ، مبديا تعجبه من أن يشق طريقه مجتازا تلك المنطقة الفسيحة الوعرة التى تحيط به بالرغم من عكازيه ورجليه القصيرتين · وهو يعرف أن الفرج سيأتيه بصورة أو أخرى · ولكنه لا يأبه بهـــذا الفرج ، فهـو يستطيع أن يبقى حيث يتصادف أنه موجود » · ويرى « أوتس » أن شـــخصيات

ثلاثية بيكيت تحيا دائما حياة ايجابية ، قد يكون مصدرها ادراك الانسان للعبث والتناقضات اللامنتهية التى ينطوى عليها الفكر البشرى ·

ويضيف « أوتس » أن أدب بيكيت يصـــور لنا معاناة الروح لما يعبث فى أرجائها من فوضى ، كما أنه يصور ادراك هذه الروح أنه ليس لذى شىء وجود خارج عنها · وتلاحق « الأصوات » هذه الروح المضناة ، دون أن تستطيع تصديق هذه الأصوات أو تكذيبها · وترفض هذه الروح المعانية الايمان بأى « نظام » أخلاقى · لأن وجود مثل هذا النظام يستوجب وجود نظام ميتافيزيقى خارج عنها يمكنهـــا الرجوع اليه ، والاحتكام الى مقاييسه الموضوعية التى تتجاوز كيانها · ويستشهد « أوتس » بقول مالون فى هذا الصدد ــ وهو قول قريب الشبه بنظرة «دافيد هيوم» الفلسفية : « اننى لم أشهد مطلقا أى دلائل تنم عن وجود « نظام » ، لا داخل نفسى أو خارجها · » ورغم هذا فالروح باقية مدفوعة الى ذلك بارادة الاستمرار ، لاتحدوها سوى رغبة واحدة هى « الرغبـة فى الخلق » ، كخلق الحكايات الذى تمارسهـــا شخصيات الثلاثية : « مولوى » ، و « مالون » و « الذى لا يمكن تسميته » ·

ويختتم « ج · س · أوتس » مقاله بقوله ان صامويل بيكيت يتمتع بموهبـة فنية أصيلة تتلخص فى قدرته على صياغة أقل الموضوعات شاعرية فى أســلوب شاعرى جميل · وميزة بيكيت الفنان أنه يصب الأفكار الفلسفية البعيدة عن روح الشعر فى قوالب شاعرية خلابة · وهو يقدم لنا فى ثلاثيته الروائية سلسلة من الأفكار الفلسفية المتعارضة ، ويعرض علينا رأيا فلســفيا ليتلوه برأى فلســفى معارض ــ وهكذا دواليك ــ حتى تنصهر جميع هذه الآراء الفلسفية فى بوتقة من التوازن النهائى الذى تتحقق فيما يكتب · ويسوق الينا « أوتس » دليلا على عناية بيكيت الشديدة بالشكل فيذكر أن « مالون » يقول : « ما الذى يدعونا الى اليأس والقنوط فى حين أن أحد اللصين قد نال الخلاص » · ويستقى بيكيت هذه الفكرة من قول القديس أوغسطين : « تذكروا أن أحد اللصين قد نال الخلاص فلا تيأسوا · ولكن تذكروا أيضا أن اللص الآخر قد مات فى الخطيئة حتى لا يستخف بكم الزهو أو يلعب الخيلاء برؤوسكم · » ويرى « أوتس » أن هذه العبارة تســتأثر باعجاب بيكيت الشديد لا لنحواها الفلسفى بل لمجرد جمال صياغتها وحسن تنسيق ألفاظها فهى تستهويه كشاعر لا كفيلسوف ·

ولعلنا لا نجد فى عالم بيكيت الروائى الذى تشيع فيه الفوضى أى نظام سوى النظام الذى يخلفه الفن · ولكن هذا النظام الفنى يقابله من الناحية الأخرى منظر العالم الخارجى الذى يتهافت أبدا ويخور ، ذلك العالم المتآكل الذى وصفه « مولوى » بقوله : « ليس هناك نهاية ممكنة لهذا الضياع الذى لم يخترمه نور الحق أبدا ، أو يوجد فيه أى شىء مستقيم أو أى أساس حق ، بل هناك فقط هذه الأشياء المائلة التى تميل أبدا حتى تتهافت وتهوى تحت سماء بلا ذكرى للصباح أو أمل الليل ، ولا شك أن صمويل بيكيت يستوحى وصف « مولوى » هذا من احساسه العميق بالعدم القابع فى قلب العالم الذى يعنى باستقصاء جوانبه ·